الهوية واللغة العربية في جزر القمر

حسن اسماعيل محمد حسن

فاللغة حاضنة الهوية وإحدى أهم وسائل الحفاظ عليها والتعبير عنها والاحتفاء بها، وقد سرني أن تناول بالفعل دور اللغة العربية في مجالات مختلفة من مجالات الحياة كالتعليم والإعلام والتراث والأحداث السياسة في عالمنا العربي، لاشك أن دورنا الأكاديمي يحتم علينا فهم شكل هذه العلاقات ومضمونها فهما صحيحا وتحليلها بعمق ودراية، وفي الوقت ذاته ، يطرح تساؤلات جوهرية حول تحدي الحفاظ على اللغة والارتقاء بها في عصر العولمة والتغيرات الثقافية والاجتماعية المتسارعة، ومن هنا ، أدعوكم أيها الزملاء الكرام أن تولوا جزءً كبيراً من اهتمامكم ونقاشاتكم لهذا السؤال الملح: كيف نجعل شبابنا يتمسك بهويته ويتعامل مع اللغة العربية – ليس فقط كلغة التاريخ والماضي المجيد - بل كلغة العصر الحديث ، لغة العلم والأعمال والتواصل الاجتماعي بأشكاله المتنوعة.

وفي هذا المضمار لا يسعني الا أن أكد لكم حرص وزارتنا ومن منطلق مسؤولية اعداد جيل من القادة المتنورين والمواطنين الصالحين على قبول هذا التحدي سواء عن طريق تصميم برامج أكاديمية فاعلة – بما فيها برنامج المتطلبات العامة وبرامج متخصصة – أو من خلال نشاطات وبرامج طلابية هادفة أو أبحاث تطبيقية ذات صلة وثيقة بالاحتياجات المجتمعية المتسارعة ، وفي الختام، أعود وأشدد على فكرة لطالما كررتها وهي أن الحفاظ على اللغة والهوية مسؤولية مجتمعية تحتاج الى تظافر الجهود الجماعية وتكامل النظام التعليمي بجهود مجتمعية تبدأ منذ نعومة الأظفار وتتخطى اسوار المؤسسات التعليمية.

انه لايخفى عليكم أن موضوع اللغة والهوية له بالغ الاهمية لما تمثله اللغة العربية لنا جميعا فهي مرتكز وجودنا الحضاري واساس كياننا الثقافي وهي المحور الصلب الذي تقوم عليه فكرة الامة وبدون اللغة العربية لوجود لامة عربية فلاهوية من غير لغة ولا لغة من غير هوية ، ان اللغة العربية بالنسبة لنا جميعا قضية مركزية ، بل انها قضية استراتيجية في المقام الاول لانها باختصار تمس امننا الثقافي ووجودنا الحضاري والتفريط فيها هو تفريط في هويتنا التاريخية وقيمنا الثقافية والأخلاقية وسيادتنا القومية .

ان هذه اللغة تاتي في سياق ثقافي عالمي دقيق تشهد فيه الهويات بشكل عام والهوية العربية بشكل خاص اكبر تحد لها بسبب ما يسمى بالعولمة الثقافية التي تفرض بمنطق صراعها هيمنة الاقوياء فتنتصر لغات وتنهزم لغات ، ومع كل هزيمة تغيب ثقافة وتغيب هوية ، وقد اكد تقرير المنظمة العالمية للثقافة والعلوم ان خمسا وعشرين لغة تتعرض للانقراض كل عام جراء هذا الصراع العالمي الذي لايرحم ، هذا التقرير دق ناقوس الخطر محذرا شعوب العالم ان القرن الواحد والعشرين سيشهد اختفاء ثلاثة الاف لغة وبالتالي اختفاء ثلاثة الاف هوية تمثل اجناسا ثقافية بشرية مختلفة ، انكم تدركون جميعا ان العولمة تطارد الهويات وتلاحقها وتحاصرها وتحشرها في زوايا ، ضيقة ونحن لاندعي انه بامكاننا ان نعيش بمنأى عن التأثر بامتدادات هذه العولمة الثقافية ولكن واجب الدفاع عن هذه الهوية يتطلب منا كسر حدة الانبهار بالوافد الثقافي ايا كان نوعه او مصدره بتقديم البديل المنافسين والاعتزاز بلغتنا وتسييجها لتقاوم عاديات التحدي وغوائل الغزو الحضاري ، وأضافت ان التحدي الذي تواجهه الهوية اللغوية في عصر ما يمكن ان نسمية « الصدمة العولمية « يتطلب منا اكثر من اي وقت مضى الاستمساك بلغتنا والاعتناء بها اولا وقبل كل شيء من حيث الرؤى والمقاربات والمناهج وتسويقها للآخر لغة عصرية قابلة لمواكبة كل مستجد

ايا كان : حضاريا او فكريا او صناعيا ، انكم تدركون جميعا ما تواجهه لغتنا العربية اليوم من عديد التحديات في عصر السماوات المفتوحة وفضاءات المعرفة اللامحدودة وتدفق المعلومات الامر الذي يتطلب منا بشكل عام ومنكم انتم المشاركون في هذه الندوة بشكل خاص عملا مضاعفا حتى تتمكن هذه اللغة من الانبعاث من وهدتها والانطلاق من جديد بعد تراجعها لتتبوا المكانة الحقيقية بها وتساير بكل جداره الركب العلمي وتواكب مجتمع المرعفة دون اي وهن او فتور وهذه مسؤولية جلية تقع بالدرجة الاولى على عواتقكم انتم ، ان النهوض باللغة العربية وتطوير اسليب تدريسها وجعلها محببة للمتعلمين هي مسؤولية كبيرة تحتاج الى تضافر الجهود من الجميع ولكن ااكد مرة اخرى واكرر ان المسؤولية بالدرجة الاولى تقع عليكم انتم كمتخصصين وعاملين في هذا الحقل لذا ارجو ان تتضافر جهودكم في هذه الندوة لتخرجوا منها بنتائج مثمرة وبناءه تساهم في وضع هذه اللغة في المكانة الحقيقة بها لتعيد سيرتها الاولى متصدرة كما كانت المشهد الثقافي العالمي.

ان اللغة العربية تحظى في هذه الايام بكثير من الاهتمام ويدل على ذلك كثرة المؤتمرات والندوات التي تعقد من اجل دعمها والعناية بها ففي شهرنا الحالي عقدت ثلاثة مؤتمرات في الدوحة وبيروت والمدينة قبل مؤتمرنا هذا وسوف تتلوه مؤتمرات اخرى تعنى باللغة العربية وقضاياها المعاصرة ، وتعكس هذه المؤتمرات مدى القلاقل الذي استقر في النفوس خوفا على اللغة العربية من التراجع والإهمال خاصة ان اليونسكو اعلنت ان كثيرا من اللغات الحالية معرض للموت والانقراض ، بل ان احد هذه المؤتمرات اصدر بيانا اعلن فيه بوضوح ان اللغة العربية في خطر ، والسؤال الذي يطرح نفسه هنا من اين يأتي الخطر ا من الداخل ام من الخارج ام منهما معا ، ان الحديث عن اللغة العربية حديث ذو شجون ، قيدم جديد سطرت فيه المقالات والأبحاث والفت فيه الكتب وكثر فيه الكلام حتى مله الناس ، وقالوا وماذا بعد اي متى يحدث التغيير الحقيقي المامول من الكلام النظري المنمق الى العمل الجدي الواقعي الذي يسهم في تطوير العربية وتوظيفها في كل مجالات الحياة ، وهذا العمل المرتجى لايقوم به فرد او قسم للغة العربية في جامعة او منظمة عربية بل يحتاج في فاعليته الى خطة عمل متكاملة تدعمها جهود متضافرة ، وأضاف الكبيسي نحن في زمن تواجه فيه لغتنا العربية تحديات جديدة بتجدد العصر ، وقد ازداد وعينا بهذه التحديات وادركنا ضرورة الحفاظ على لغتنا والنهوض بمها ، ولم عد احد منا جاهلا مايجب علينا تجاه لغتنا فهي تنتظر منا بذل مزيد من الجهود من اجل تطويرها والدخول بها الى مجتمع المرعفة وهذا ما دفع قادة الدول العربية الى الموافقة على « مشروع النهضة باللغة العربية للتوجه نحو مجتمع المعرفة « وكلفوا المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم « الالكسو « بتنفيذه ، ولكن الدخول الى العالم الجديد « مجتمع المعرفة « لايكون بفكر فقير متخلف بل بفكر متجدد مبدع يعمل من خلال لغة دقيقة حية ، وهذا ماقصده جبران خليل جبران حين سئل عن مستقبل اللغة العربي فقال « مستقبل اللغة العربية يتوقف على مستقبل الفكر المبدع في مجموع الامم التي يتكلم بها فان كان ذلك الفكر موجودا كان مستقبل اللغة العربية عظيما كماضيها والا فلا» ، واضاف اننا نشهد اليوم حالة من الاستلاب الحضاري للغتنا العربية في ظل منافسة شرسة تظهرها في وضع صعب تبدو فيه عاجزة عن تحقيق وجود قوي ، ولعل الارتباط الوثيق بين اللغة والهوية هو الذي جعل كثيرا من المفكرين العرب يرددون مقولة ضياع الهوية العربية بضياع اللغة العربية ومن هنا تاتي اهمية مؤتمرنا هذا الذي يهدف الى توصيف مكونات الهوية العربية في علاقها باللغة في ضوء الواقع المعاصر ورصيد التحديات التي تواجه اللغة العربية في مجالات التعليم والاعلام والمحيط الاجتماعي وبحث سبل تعزيز الهوية العربية من خلال تمكين اللغة العربية في حياتنا المعاصرة ،

وإذا كانت التحديات الداخلية هي قدر السلطة الحاكمة فان الأمل يعقد على النظم الاجتماعية في مواجهة التحديات الخارجية ، و مجتمعاتنا هي وحدها القادرة على مواجهة هذه التحديات بما تملكه من وعى وولاء لدولهم ،وهؤلاء المواطنون لابد لهم من إعداد جيد يتمثل في تعميق الهوية

الثقافية وتعزيز أشكال المواطنة ، وتلعب التربية الدور الرئيسي في تشكيل المجتمع فهي المسئول الأول عن بناء القوى البشرية وتشكيل الشخصية وتنمية مهاراتها وتشكيل ثقفتها وتعتبر أهم وظائف التربية هي دمج الفرد في مجتمعة ووسطه البيئي بحيث يرتبط الأفراد فيما بينهم على أسس متقاربة تجعل من المجتمع وحدة مترابطة متسقة متجه وجهة واحدة بحيث يضم الأفراد إطار ثقافي عام ويشتركون في كثير من الصفات الأساسية ولكنهم يتنوعون داخل هذا الإطار كل حسب فرديته ، ويؤدى ذلك إلى وحدة المجتمع وتماسكه وهذا ما يسمى دور التربية في التطبيع الاجتماعي ،والنظام التعليمي بمؤسساته يعد أنسب الوسائط لتحقيق هذه الأهداف وذلك من خلال ترسيخ القيم و الاتجاهات و العادات التي تؤدى إلى إعداد جيل يستطيع مقاومة أن يقع فريسة لأي ثقافة مسيطرة، جيل يملك القدرة على التفكير الناقد الواعي الذي يستطيع أن يفرق بين ما هو غث وما هو ثمين.

محور الاتصال والانفصال في تحولات اللغة والهوية

الذي قدمه أ.د محمد أمين وينطلق هذا البحث من فكرة مؤداها أن بقاء كيانات مثل اللغة والهوية مرتبط بمدى تطورها واستجابتها للمستجد من الحاجات الوظيفية والرمزية للأفراد والجماعة، وهو ما يعني أن ثبات هذه الكيانات على حالها هو تحنيط لها وعزل عن التطور الطبيعي للجماعات البشرية. وتأسيسا على هذا يروم البحث فحص فرضيتين متلازمتين:

- الفرضية الأولى تعتبر التحولات التي تعرفها اللغة والهوية إما أن تكون ذات طبيعة اتصالية أو ذات منحى انفصالي. فالتحولات الاتصالية هي تلك التي تتم من داخل المنظومة، محافظة على استمرارية البناء وتطويره. أما التحولات الانفصالية فهي تلك التي توجد قطيعة مع البناء الأصلي وتؤدي إلى خلق بناء جديد أو إلى الاتصال ببناء بديل.
- أما الفرضية الثانية فتعتبر اللغة أساس الحفاظ على تماسك الهوية الفردية والجماعية، وأنها تمنع تحولات الهوية من أن تصبح ذات طبيعة انفصالية.

ويسعى هذا البحث إلى إبراز الوظيفة التي تقوم بها اللغة «المعيارية» أو اللغة «الفصيحة» في خلق اتصال زمني ومكاني بين مكونات البناء اللغوي العام ومفردات الهوية الفردية والجماعية.

محور تعزيز اللغة العربية وأثرها في الهوية الإسلامية في جزر القمر

و أكدت فيه أن اللغة العربية استطاعت أن تتجاوز حدود الأعراق والألوان، وأن تصل إلى كل بقعة وصل الإسلام إليها، فكل من ينطق بالشهادتين فينطق بالعربية ضرورة، ولو في أدنى الحدود، ولم تكن للغة العربية أية قدرة على اجتياز حدود الجزيرة العربية لولا الإسلام، فالإسلام هو الذي نفخ فيها من روحه، وجعلها لغة عالمية : بطريقة اختيارية.

محور مخاطر النظرة إلى التراث بين القطيعة والتقليد وتأثيرها في الهوية

من المخاطر الرئيسة، التي تهدد تشكيل الهوية العربية الإسلامية المعاصرة، طريقة النظرة إلى التراث والتعامل معه وانعكاس هذه النظرة على مكونات الهوية والشخصية العربية المعاصرة. ومن اللافت للنظر أن تكون هذه المخاطر في اتجاهين متقابلين ومتضادين، ولكنهما يؤديان إلى النتيجة نفسها:

- الاتجاه الأول: اتجاه القطيعة مع التراث، وهو الاتجاه الذي يشكل صلب النظرية الحداثية، ويذهب إلى أن الحداثة لا تقوم إلا مع القطيعة الكاملة للتراث من صلب التجربة الغربية، وما حققته من تقدم، يُغري أنصار هذا الاتجاه، عندنا بالتحمس له من دون التفات إلى المخاطر الجوهرية، التي يحملها على مكونات شخصية مثل الشخصية العربية.
- الاتجاه الثاني: اتجاه التقليد واستعادة النموذج التراثي، كما تحقق في عصوره الذهبية، وهو الاتجاه الذي يشكل صلب النظرية السلفية، وقد يترتب عليه كثير من مخاطر عدم التصالح مع العصر.

ولكل من الاتجاهين على مفهوم

اللغة والإبداع بها والتواصل معها في شتى المجالات.

ومحور تعريب في جزر القمر.. إشكاليات وتجارب

إن مشكلة التعريب في جزر القمر يأخذ أشكالا متعددة، ويطرح أسئلة عديدة، ويمس مرجعيات جوهرية، وبذلك فهو يمثل في الوقت الراهن وجهة نظر مركزية لملاحظة وتحليل الصيرورة الثقافية للمجتمعات الشرقية الجنوبية للمحيط الهندي في راهنيتها الساخنة وبنياتها الأكثر تجذرا.

فالملاحظ اليوم أن التعريب يشكل في جزر القمر مبدأ لا يمس وهدفا لا يناقش في مسيرة البناء الوطني شأنه في ذلك شأن الاستقلال السياسي الذي كان يعتبر حجر زاويته. بهذه الصفة، فهو يشكل في المجال الثقافي دعامة الخطاب الرسمي للحكم الوطني.

لكن هذا التأكيد القوي على شرعية اللغة الوطنية يقابله تباطؤ في التطبيق وصعوبة قصوى في التخلص من اللغة الفرنسية إن لم نقل الوعي أحيانا بوجود مقاومة صماء لمباشرة التعريب ومُركب افتتان بالعربية ونفور منها، مما يجعل الممارسة الماضية والحاضرة والمتوقعة في كل بلد من بلدان التي تتمثل في اندماج كبير ومتواصل داخل وضع يتسم بالازدواجية اللغوية سواء تعلق الأمر بالإدارة أو الاقتصاد أو المحيط أو النظام التعليمي.

يدفع هذا التناقض بين ما يقال وما يفعل إلى الشك في وجود صراع كامن لا معلن عنه، بل لاشعوري، وتوتر حقيقي حول الأهداف العميقة للمجتمع القمري .

يطرح مشكل التعريب في جزر القمر التي عاشت فترة استعمار طوالها كانت الفرنسية هي اللغة الرسمية، وبذلك وجدت تلك الجمهورية نفسها غداة الاستقلال ذات بنيات إدارية وأنظمة تعليمية ومؤسسات اقتصادية تسود فيها اللغة الفرنسية سيادة مطلقة.